﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النِّساء: 150 - 151]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا ندبَ بيانُ الله في الآيةِ السَّابقةِ إلى العفوِ وقولِ الخَيْر، وخَتَمها بصفتي العفوِ والقُدرة؛ شرعَ في بيانِ أحوالِ من لا يُعفَى عنه من أهلِ الكتابِ وخاصَّة اليهود، وبيانِ أنَّهم هُمُ الَّذين أضلُّوا المنافقينَ بما يُلقونَ إليهم من الشُّبَه، فبيَّنَ أنَّهم يستُرونَ ما عندَهم من العلمِ بالله تعالى في كتابِهم، وفَضحَ عقيدتَهمُ الباطلةَ في رُسُلِ الله، فهم يُكذِّبونَ ببعضِ الرُّسُل، ومنهم محمَّدٌ وعيسى - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - ويُصدِّقونَ ببعض، كإيمانِ اليهودِ بموسى وغيرِه - ﷺ - فيتَّخذونَ بذلكَ طريقًا إلى الكفر، ولذلكَ استحقُّوا أنْ يكونوا بهذا السَّبيل ومُقدِّماته من الكافرينَ الَّذين أعدَّ الله لهم يومَ القيامةِ العذابَ المُهين، ويَدخُلُ معهم في هذا الحكمِ الإلهيِّ المنافقونَ الَّذين هم على شاكلتِهم في حقيقة ما انطوتْ عليه قلوبُهم من الكفر[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفَرِّقُواْ﴾: الفَرْقُ يُقاربُ الفَلْقَ، لكنَّ الفَلْقَ: يُقالُ اعْتبارًا بالانْشقاق، والفَرْق: يُقالُ اعتبارًا بالانْفصال، قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، وقد جمعَهما قولُ الله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء: 63]، والفريقُ: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخَرين، قالَ تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشُّورى: 7]، وفَرَّقْتُ بين الشَّيئَيْن: فصلتُ بينَهما، سواءٌ كان ذلكَ بفَصْلٍ يُدركُه البَصَر، أم بفصْلٍ تُدركُه البَصيرة، قالَ تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، والتَّفريقُ أصلُه للتَّكثير، ويُقالُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

ذلكَ في تَشْتيتِ الشَّمْلِ والكلمة، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: يُظهرونَ الإيمانَ باللّه، ويكفرونَ بالرُّسُلِ خلاف ما أمرَهم اللّه به[1].

2) ﴿سَبِيلًا﴾: السَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولَة، وجمعُه سُبُل، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرُف: 10]، والسَّبيلُ: اسْمُ جِنْسٍ إذا أُطْلِقَ؛ يختصُّ بما هو الحقُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزُّخرف: 37] يعني به: طريقَ الحقِّ.

ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كانَ أوْ شرًّا، فمن الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125]. ومن الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: 55][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طَريقًا ومَسْلَكًا لكفرِهم باللّه ورُسُلِه[3].

3) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أعدَدْتُ لأمرِ كذا: هيَّأْتُه له، والاسْتعدَادُ للأمر: التَّهيُّؤُ له، فإذا قيلَ: أَعْدَدْتُ هذا لك، أي: جعلتُه بحيثُ تعدُّه، وتتناولُه بحسَبِ حاجتِك إليه، قالَ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: 60]، ويأتي بمعناه قولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وبمعنى: هيَّأنا[4].

4) ﴿مُّهِينًا﴾: هو فَعيلٌ من الْمَهانَة، يُقالُ: مَهَنَ يَمْهَنُ مَهانَةً، ومَهَنْتُه مَهْنًا والماهِنُ: الخادمُ، وقد مَهَنَ القومَ يَمْهَنُهُم، أي: خَدَمَهم، وامْتهنْتُ الشَّيء: ابْتَذلتُه، ورجلٌ مَهين، أي: حَقير[5]، والهوانُ على وَجْهَيْن:

أحدُهما: تَذَلُّلُ الإنسانِ في نَفْسِه لما لا يلحقُ به غَضاضَة، فيُمدَحُ به، قالَ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثَّاني: أنْ يكونَ من جهةِ مُتسلِّطٍ مُستَخِفٍّ به، فَيُذَمُّ به، وعلى الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93][6]، وقولُه تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 632 - 633.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 395، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَبَلَ).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509، والرازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَدَ).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 550 - 551.
(5) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (مَهَنَ).
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 849.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يتوعَّدُ اللهُ ﷻ الكافرينَ به وبرُسُلِه، من اليهودِ والنَّصارَى حيث فرَّقوا بين اللهِ ورُسُلِه في الإيمان، فآمنوا ببعضِ الأنبياءِ، وكفروا ببعض، واتَّبَعوا ما أَلْفَوْا عليه آباءهم لا عن دليلٍ قادَهم إلى ذلك، فإنَّهم لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّدِ الهوَى والعصبيَّة، فاليهودُ - عليهم لعائنُ اللهِ - آمنوا بالأنبياءِ إلَّا عيسى ومحمَّدًا - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - والنَّصارَى آمنوا بالأنبياءِ، وكفروا بخاتِمهم وأشرَفِهم محمَّدٍ ﷺ، والسَّامرةُ لا يؤمنون بنبيٍّ بعدَ يُوشعَ خليفةِ موسى بنِ عمران عليه السلام والمجوسُ يُقالُ: إنَّهم كانوا يؤمنونَ بنبيٍّ لهم، يُقال له: زَرادِشْت، ثمَّ كفروا بِشَرعِه، فرُفعَ من بين أظْهُرِهم، والمقصودُ أنَّ مَنْ كفرَ بنبيٍّ من الأنبياءِ؛ فقد كفرَ بسائرِ الأنبياء، فإنَّ الإيمانَ واجبٌ بكلِّ نبيٍّ بعثَه اللهُ إلى أهلِ الأرض، فمَن ردَّ نُبُوَّتَهُ للحسَدِ أوِ العصبيَّةِ أوِ التَّشهِّي؛ تبيَّن أنَّ إيمانَه بمن آمنَ به من الأنبياءِ ليس إيمانًا شرعيًّا، إنَّما هو عن غَرَضٍ وهوَى، أو أرادَ أن يَخْلِطَ بين ما أتَى به الأنبياءُ من ربِّهم، فيظهرَ بدينٍ بشريٍّ جديدٍ مُبتدَع، فهو أشدُّ بلاءً وأسوأُ مَسْلكًا، وأولئك هم جميعًا أهلُ كُفرٍ محقَّقٍ - لا محالةَ - بمنِ ادَّعَوُا الإيمانَ به، وكما اسْتهانوا بمن كفروا به، واتَّبعوا أهواءهم وأغراضًا خبيثةً بما اعْتقدوه، وفعلُوه، فإنَّ اللهَ أعدَّ لهم يومَ القيامةِ عذابًا فيه غايةُ العذابِ والإهانةِ والإذْلال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة الإخبار بالاسم الموصول:

أفـادَ المـوصـولُ بيانَ قُبحِ ما عليه أهلُ الكتابِ من الكفر

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ عبَّرَ عنِ الكافرينَ بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ الاسْم؛ لما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى وجهِ الخير، ومن شَناعةِ صَنيعِهم؛ ليُناسِبَ الإخبارَ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ الآيةِ الثَّانية، والمرادُ من ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ هنا: اليهودُ والنَّصارَى، والأظْهرُ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ خاصَّة؛ لأنَّهم المختلِطونَ بالمسلمينَ والمنافقين، وكان كثيرٌ من المنافقين يهودًا[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509 - 510.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.

سرُّ حذف خبر إنَّ:

في حذف الخبر توسُّعٌ في تصوُّر شناعة المعاني

ذهب الرَّازيُّ إلى أنَّ "في خبر إنَّ قولين: أحدهما: أنَّه محذوف، كأنَّه قيل: جمعوا المخازي. والثَّاني: هو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والأوَّل أحسن؛ لوجهين: أحدهما: أنَّه أبلغ؛ لأنَّه إذا حذف الجواب؛ ذهب الوهم كلَّ مذهب من العيب، وإذا ذكر؛ بقي مقتصرًا على المذكور، والثَّاني: أنَّه رأس الآية، والأحسن ألَّا يكون الخبر منفصلًا عن المبتدأ"[1].

مجيءُ فعل الكُفْر بصيغةِ المُضارع:

تجدُّدُ الكفر مبعثُ الذَّمِّ

جاءتْ صيغةُ المضارعِ ﴿يَكْفُرُونَ﴾ هنا للدَّلالةِ على أنَّ أمرَ الكفرِ مُتجدِّدٌ فيهم ومُستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي، ثمَّ رجَعوا؛ لما كانوا أحْرياءَ بالذَّمِّ[2].

الإيمان مرغوبٌ فيه، مأمورٌ به، والكفرُ منهيٌّ عنه

عبَّر عن كفرهم هنا بلفظ المضارع، وعبَّر عن إيمان بعضهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النِّساء: 152] بلفظ الماضي؛ لأنَّ الإيمان مأمور مطلوب به، فجعل كالواقع المحقَّق، والكفر منهيٌّ عنه، فجُعل كأنَّه لم يقع[3].

علَّة التَّعبير عن الرُّسل بالجمع:

دلَّ جمعُ الرُّسلِ ذمَّ جميعِ الكافرينَ بهم

عبَّر عن الرُّسل بصيغةِ الجمع؛ لأنَّ اليهودَ كفروا بعيسى ومحمَّدٍ – عليهما الصَّلاةُ والسَّلام – والنَّصارَى كفروا بمحمَّدٍ ﷺ، فجَمَعَ الرُّسُلَ باعْتبارِ مجموعِ الكفَّار، أو أرادَ بالجمعِ الاثْنَيْن، أو أرادَ بالإضافة معنَى: الجِنْس، فَيَسْتوي فيه صيغةُ الإفرادِ والجمع؛ لأنَّ المقصودَ ذمُّ مَنْ هذه صفتُهم بدونِ تعيينِ فريق[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/255.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.

تكرارُ فعلِ الإرادةِ بصيغةِ المُضارع:

أُطلقتِ الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وأريدَ بها المحاولةُ؛ ليفرِّقوا بين اللّه ورُسُلِه، لكنَّهم لم يَبلغُوا ما أرادوا من ذلكَ لسبَبيْن: الأوَّلُ: أنَّه أمرٌ صعبُ المنال، فاللّه تعالى حافظُ دينِه، ولنْ يُمكِّنَهم من تحقيقِ مُرادِهم.

لـن يفلـحَ أهل الـكـتـاب في الـتَّـفـريـقِ بـينَ الـلـهِ ورُسُـلِـه، مهما تـجـدَّدت محاولاتهم

والثَّاني: أنَّ اللّه تعالى قالَ: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾، فهم ما زالوا يُحاولون؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، ولو تحقَّق مُرادُهم، وأُنْجِزَتْ إرادتُهم؛ لَقالَ: (فرَّقُوا بينَ اللّه ورُسُلِه) بالماضي، وهذا لم يتمَّ لهم، ولن يتمَّ[1].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في الآية:

في زَعْمِ أهلِ الكتابِ أنَّهم مؤمنون باللّه، ولكنّ نَفْيَ رسالةِ بعضِ أنبيائِه مُنافٍ تمامَ المنافاةِ لزعمِهم ذاك، ولذلكَ جاءَ بيانُ اللّه تعالى على طريقِ الاسْتعارةِ التَّمثيليَّة؛ ليُشبِّه الأمرَ المُتخيَّلَ في نفوسِهم بما يُضمِرُه مُريدُ التَّفريقِ بين الأولياءِ والأحْباب، فهي تَشْبيهُ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ معقولة، والغرضُ من التَّشبيهِ: تَشْويشُ المُشَبَّه؛ إذْ قد عَلمَ النَّاسُ أنَّ التَّفرقةَ بين المتَّصلينَ ذَميمَة[2].

لأهـلِ الـكـتـابِ غـرضٌ خبيثٌ في التَّفريقِ بينَ اللهِ ورُسُلِه

دلالة المُتشابه اللَّفظي:

هذه الآيةُ الكريمةُ في معنَى الآياتِ الَّتي وردتْ في سورةِ البقرة، في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]، وقولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، وفي سورةِ آل عمران في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: 84]، إلَّا أنَّ تلكَ الآياتِ: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين الرُّسُل، والآيةَ هذه: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين اللّه وبعضِ رُسُلِه،

التَّـفـريـقُ بين الرُّسُلِ مآلُهُ إلى التَّفريقِ بين اللهِ ورُسُلِه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، والَّذي حَدَا بنا لذكرِ التَّشابُهِ مع وجودِ هذا الفَرْقِ بين آيةِ سورة النِّساء، وآياتِ سورتي البقرةِ وآلِ عمران، هو أنَّ مآلَ الجميعِ واحد؛ لأنَّ التَّفريقَ بين الرُّسُلِ يَسْتلزِمُ التَّفريقَ بين اللهِ وبعضِ رُسُلِه، والحكمَ بكفرِ الجميعِ كذلكَ، وهو واضحٌ لا مَحالة[1].

دلالة الضَّمير في ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾:

أفـادَ الضَّـمير معنَى العهدِ لا العُمُوم

في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أُضيفَ الجمعُ في: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ إلى الضَّمير (الهاء)؛ فأفادَ هنا العَهْدَ لا العُمُومَ بالقَرينة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾[2].

سِرُّ عطْفِ الجُمَلِ:

أهـلُ الكِـتـابِ مُستحقُّونَ لكلِّ وصـفٍ مُضَمَّنٍ في هـذه الجُمَلِ على حِدَةٍ

عَطَفَ بيانُ اللهِ تعالى الْجُمَلَ الثَّلاثة: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بالواوِ على جملةِ صلةِ (الَّذين) - وإنْ كانَ بعضُها سببًا لبعض - إشارةً إلى أنَّهم جديرونَ بالوصفِ بكُلٍّ منها بانْفرادِه، وأنَّ كلَّ خَصْلةٍ كافيةٌ في نِسْبةِ الكُفرِ إليهم، وقدَّمَ نتيجتَها، وخَتَمَ بالحُكْمِ بها على وجهٍ أَضْخَمَ، تَفْظيعًا لحالِهم[3].

نكتة إعادة لفظ الرُّسل:

في الإعـادة دفعٌ لتوهُّم التَّفريق بين الله وجماعة الرُّسل

استعلمَ الرَّاغب عن ذلك وأجاب بما نصَّه: "إن قيل: لِمَ أعاد ذكر الرُّسل، ولم يقل: بين اللهِ وبينهم، فيكون أوجز؟ قيل: لما عنى أنَّهم يفرِّقون بين اللهِ ورسله وبعض رسله، وعنى بقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلَّ رسله؛ لأنَّ كلَّ من كفر ببعضهم؛ كفر بكلِّهم، فلو لم يعد ذكرهم؛ لاقتضى أن يكون معناه: يفرِّقون بين اللهِ وبين جماعة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(3) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

الرُّسل، فإنَّ المضمر لا يفيد إلَّا ما يفيد مظهره، فأعاد ذكرهم؛ لمَّا كان الأوَّل عامًّا والثَّاني خاصًّا"[1].

وجه الاستئناف في جملة القول:

علَّة الاستئناف البيانيّ التَّفريق بين الله ورسوله

ذهبَ ابن عاشور إلى أنَّ جملة: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ واقعةٌ في معنى الاستئناف البيانيِّ للتَّفريق بين الله ورسُلِه، ولكنَّها عُطِفتْ؛ لأنَّها شأنٌ خاصٌّ من شؤونهم؛ إذ مدلولها قولٌ من أقوالهم الشَّنيعة، ومدلولُ ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ هيئةٌ حاصلةٌ من كفرهم، وهو علَّة حسن العَطْف باعتبار المغايرة، ولو في جُملة واحدة، ولو فُصِلتْ؛ لكانَ صحيحًا[2].

نكتة التَّعبير بالتَّركيب ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

أهلُ الكتاب أتباعُ هوًى وسبيلٍ عِوَجٍ عن الحقِّ

﴿بَيْنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بمحذوف؛ إذْ هو حالٌ من ﴿سَبِيلًا﴾، وأُشيرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو للمفرد، والمرادُ به البيْنِيَّة، أي: بين الكفرِ والإيمان[3]؛ رغبةً، وهوًى، وسبيلَ ميلٍ عن الحقِّ.

ويمكنُ أن يُرادَ به هنا معنَى: التَّثنية، أي: بينَهما، والأصلُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾: أنْ يقعَ بمعنَى المفردِ والتَّثنيةِ والجمعِ[4].

علَّةُ الإشارة للبعيد:

أفادتِ الإشارةُ للبعيد بيانَ بُعدِ أهلِ الكتابِ عنِ الحقِّ

أشارَ إلى البعيد في قولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ تعبيرًا عن بُعدِ الَّذينَ يُريدونَ تَلْفيقَ دينٍ جديدٍ بعيدٍ عن الإيمان الحقِّ باللّٰه ورُسُلِه؛ لكونهم أرادوا سبيلًا بين سَبيلَيْن، فأنتَجَ ذلكَ قولَه بالإشارة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: البُعَداءُ البُغَضاء[5].

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/212.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/138 - 139.
(4) العكبري، التبيان: 1/200.
(5) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

علّة الإخبار بالإشارة:

أفـادَ الإخبـارُ بـالإشـارةِ إلى أنَّ ما يَعقبها مُتحقّقٌ بالحُكْمِ المُقـرَّرِ لمن كـانَ قبلَها

قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ - في وجهٍ - خبرُ (إنَّ)، والإشارةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى أصحابِ تلكَ الصِّلةِ الماضية، وموقعُ الإشارةِ هنا لقصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم لاسْتحضارِهم بتلكَ الأَوْصافِ أحْرياءُ بما سيُحكَمُ عليهم من الحُكْمِ المعاقِبِ لاسْمِ الإشارة؛ لكون "هؤلاء الَّذين قالوا ذلك القول، وجحدوا ذلك الجحود بسبب هذه الأقوال وتلك الأحوال كافرون كفرًا لا مجال للشَّكِّ فيه"[1].

وجوهُ إعراب ﴿حَقًّاۚ﴾:

أفـادتْ وجـوهُ الإعـرابِ تأكيدَ كُفرِ أهلِ الكتاب

في قولِه تعالى: ﴿حَقًّاۚ﴾ أَوْجُهٌ عَديدَة:

أحدُها: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ قَبْلَه[2]، والثَّاني: أنَّه حالٌ من قولِه: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: أولئكَ همُ الكافرونَ من غيرِ شكٍّ[3]، وهذا يُشبِهُ أنْ يكونَ تفسيرًا للمصدرِ المؤكَّد، والحقُّ هنا: ليس يُرادُ به ما يُقابلُ الباطل؛ بل المرادُ به أنَّه ثابتٌ لا محالةَ، وأنَّ كفرَهم مقطوعٌ به. والثَّالثُ: أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: الكافرون كفرًا حقًّا[4]، وفي الأحوال الثَّلاثة أثبتَ لفظ ﴿حَقًّاۚ﴾ الكُفرَ لأهل الكتاب المتَّصفين بالأوصاف السَّابقة، بيد أنَّ في وجه المصدرية مزيدَ توكيدٍ لكفرهم.

بلاغة حشد المؤكِّدات على حكم الكفر:

تأكيدُ قَصْرِ الكُفْرِ بـأهـلِ الـكـتـابِ وضُرَبائِهم

أكَّد ﷻ الحكمَ عليهم بالكفر بثلاثة مؤثِّرات، أوَّلها: الإتيان بكلمة ﴿هُمُ﴾ الدَّالَّة على تأكيد الحكم، وتأكيدِ قَصْرِ صِفَةِ الكُفْرِ على مَنْ تقدَّمَ ذكرُهم، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ مجازيٌّ[5]، وثانيها: بتعريف طرفي

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576، والعكبري، التبيان: 1/200.
(3) العكبري، التبيان: 1/200.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/139، وأبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.
(5) وهو القَصْرُ الَّذي ينزلُ فيه ما عدا المقصور عليه، وهو ما يكون القصرُ بالإضافة إليه منزلة المعدوم، ينظر: حسن عبد الرزَّاق، البلاغة الصَّافية، ص: 165.

الجملة إنعامًا في تشخيصهم، ومبالغة في تأكيد وصف الكفرِ فيهم، وإثباتًا بأنَّهم لَا يخرجون عن دائرة الكفار، ويسارعون فيها، ولا ينتقلون منها، فهم أوغل في الكفر من الَّذين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا رسالة، ومِثْلُ هذا القصرِ يدلُّ على كمالِ الموصوفِ في تلك الصِّفةِ المقصورة، والمبالغةِ في بيانِ أنَّ كفرَهُم قدِ اشْتَمَلَ على أحوالٍ عديدةٍ من الكُفْر، وعلى سَفَالةٍ في الخُلُق، أو سَفَاهةٍ في الرَّأي بمجموعِ ما حُكيَ عنهم من تلكَ الصِّفات، فإنَّ كلَّ خَصْلةٍ منها إذا انْفرَدتْ؛ هي كُفْر، فكيف بها؛ إذا اجْتمعت[1]؟

كفرهم يقينيٌّ، وصفتُهم فيه الكمال

ثالثًا: التَّعبير بكلمة ﴿حَقًّا﴾، أي: أنَّ كفرهم ثابت قد ثبت وحقَّ حقًّا، فهم الكاملون في الكفر، وحقًّا تأكيد لمضمون الجملة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا ثابتًا يقينًا لَا شكَّ فيه[2]، وفي ذلك مبالغةٌ في إظهار كفرهم، وإبراز سوء أخلاقهم، وقُبح صفاتهم.

في التَّوكيد إزالة للتردُّد في عقولهم

وكان ذلك التَّوكيد حيث مظنَّة التردُّد في عقول الَّذين قالوا ذلك القول، فقد حسبوا بقولهم وإرادتهم أنَّهم يرضونه بذلك، فبيَّن الله سبحانه أنَّه لَا وسط بين الإيمان الكامل والكفر في شيء، وخصوصًا أنَّ جحود هؤلاء ببعض الرُّسل انبعث من حقد دفين، وتفريقهم بين الأجناس حتَّى في مقام الرِّسالة، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، وإنَّهم بهذا الكفر يحسدون النَّاس على ما آتاهم الله من فضله؛ إذ إنَّها كانت في اليهود وأشباههم الَّذين رفضوا النَّبيَّ محمَّدًا، لأنَّه عربيٌّ، وليس بعبريٍّ، وحيث كان التَّردُّد؛ وجبَ تأكيدُ الحقِّ، ليزول التَّردُّد، ويتَّبع التَّابع عن بيِّنة ويقين[3].

فائدةُ وضعِ الْمُظْهَرِ موْضِعَ الْمُضْمَر:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: (لهم)، وإنَّما وُضِعَ

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/11 - 12، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.

المُظهَرُ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مكانَ المُضمَرِ ذمًّا لهم، وتذكيرًا لوصفِهم أو لجميعِ الكافرين، وهم داخلونَ في زُمرتِهم دُخولًا أَوَّليًّا[1]، ففي الإظهار عذابٌ مهينٌ تشملهم فيه الإهانةُ والمذلَّة والضِّعة[2].

التَّذكير بحكم كفرِ أهلِ الكتاب، وذمِّهم، وبيان مصيرِهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفريق والتَّقسيم:

التَّفريقُ: قَطْعُ الاتِّصالِ بين شيئَيْنِ أو أكثر لما عَرَفتَ، وذلك لا يَستدعي تقدُّمَ ما يتناول، والتَّقسيمُ: جعلُ الشَّيء أقسامًا، وذلكَ يَستدعي تقدُّمَ ما يتناولُ الأقسام، نحو: الكلمةُ: اسْمٌ، وفعلٌ، وحَرْف[3]، ويكونُ لكلِّ قسمٍ ارْتباطٌ بما قبلَه وبما بعدَه، فالتَّفريقُ الَّذي يقْتضي قطعَ أيِّ اتِّصالٍ بين الأشياء، هو الَّذي ناسبَ سياقَ الآيةِ في بيانِ ما فعلَه أهلُ الكتاب من إيمانِهم ببعضِ الرُّسُلِ وتكذيبِهم ببعض، وبذلكم كفروا باللّٰه تعالى الَّذي أمرَ عبادَه بضرورةِ الإيمانِ بجميعِ الرُّسُل، وهي عقيدةُ المؤمنِ المسلمِ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

أهلُ الكتاب حاولوا قطعَ الصِّلة بين الله ورسوله

السَّبيل والطَّريق والصِّراط:

الصِّراطُ: هو الطَّريقُ السَّهل، والطَّريقُ: لا يقتضي السُّهولة، والسَّبيلُ: اسْمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطَّريقُ، وعلى ما لا يقعُ عليه الطَّريق، تقولُ: سبيلُ اللّٰه، وطريقُ اللّٰه، وتقولُ: سَبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُك أنْ تفعلَ به، ويُرادُ به سبيلُ ما يَقصِدُه، فيُضافُ إلى القاصِد، ويُرادُ به القَصْدُ - وهو كالمحبَّةِ في بابِه - والطَّريقُ كالإرادة[4].

السَّبيل بما يكتنفه من أسباب يحتمل الصُّعوبة والسُّهولة

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/8.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 129، والكفوي، الكُلِّيَّات: 2/21، 3/353.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313، والكفوي، الكلِّيات: 3/36، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 145.

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ يُحدِّثُنا عن أهلِ الكتابِ الَّذين بإيمانِهم ببعضِ الرُّسُل وكُفرِهم ببعضٍ يتَّخذونَ ذلكَ سبيلًا، أي: ما يقصِدونَه هُمّ، وهو قَصْدٌ للكفرِ باللّه، وهذا السَّبيلُ قد يكونُ سهلًا، وقد يكونُ صعبًا، بما يكتنفُه من الأسبابِ الموجبةِ للسُّهولةِ والصُّعوبة، وهذه المعاني تصدُقُ على كلمةِ ﴿سَبِيلًا﴾، ولذلكَ كانَ إيرادُها في سياقِ الآيةِ أنسبَ من كلمتي (الصِّراط) و(الطَّريق).

(أَعْتَدَ) و(هيَّأ):

الإعــدادُ يـوائِـم بين تـنـاوُلِ الأمرِ وتدبيره، وتحقُّقِ الحاجةِ إليه

الهَيْئَةُ: الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الشَّيء، محسوسةً كانت أو مَعقُولة، لكن في المحسوسِ أكثر، قالَ تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49][1]، ويحتمل معنى: الإصلاح، فهيَّأَهُ تَهْيِئَةً وتَهْيِيئًا: أَصْلَحهُ[2].

أمَّا الإعدادُ للأمرِ؛ فجَعْلُه بحيثُ يكونُ تناوُلُه وترتيبُه وتدبيرُه بما يُلائمُ، ويُحقِّقُ الحاجةَ إليه، والنَّتيجةَ المَرْجُوَّةَ منه، وبهذا المعنَى: أعدّ اللّه للكافرينَ العذابَ المُهينَ جزاءً لهم.

وهذا الإعدادُ هو بالمنظورِ البشريِّ، لا أنَّ اللّه يحتاجُ لحصولِ شيءٍ بالاستعدادِ أو الإعْدادِ له، وإنَّما النَّتيجةُ والمصيرُ يُناسبُ ما قدَّمَه الكافرون لأنفُسِهم من التَّفريقِ بالإيمانِ بينَ اللّه ورُسُله، وصناعتِهم لدينٍ جديدٍ مُلَفَّقٍ من اليهوديَّة، والنَّصرانيَّة، والبُوذيَّة، بعيدٍ كلَّ البُعدِ عن دينِ اللّه الحقِّ، وهو الإسلام الَّذي قالَ اللّه عنه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85].

فـــي الاعـــتـــداد معنى الادِّخار

لفظ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، هو تعبيرٌ قرآنيٌّ اختصَّ القرآن به؛ لأنَّ اعتدَّ من العَتَاد، والتَّخريج اللَّفظي: هيَّأنا لهم عتادًا، وهو عذاب

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 850.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (هَيَأَ).

جهنَّم، وقد ذكر الرَّاغب أنَّ العَتَادَ: ادِّخار الشَّيء قبل الحاجة إليه كالإعداد؛ ليُلمحَ في المعنى: أنَّ هؤلاء الكافرين ادُّخِرَ لهم العذاب المذل جزاء استكبارهم[1].

المُهين والذَّليل:

فـــي عـــذاب الكافرين إهانةٌ يستحقُّونها لصغر حالهم

المُهينُ: هو المستَضْعَفُ، وفي القرآن: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ [السَّجدة: 8]، وهو الضَّعيف، وهو فعيلٌ من المَهانَة، وهو كنايةٌ عنِ الضَّعفِ في مَهنته؛ لأنَّه يُقالُ: المَهينُ من المَهْنةِ، وهي العملُ والخِدْمَة[2]، والرَّجلُ المَهين، أي: الحَقير[3].

والذُّلُّ: ما كانَ عن قَهْر، ومتى كانَ من جهةِ الإنسانِ نفسه لنَفْسِه؛ فمَحْمود، قالَ تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، والذِّلُّ: ما كان بعدَ تَصَعُّبٍ وشماسٍ من غيرِ قهر، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلًّا، ويقالُ: الذُّلُّ والقُلُّ، والذِّلَّةُ والقِلَّة، قالَ تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: 44][4].

والعذابُ المهينُ الَّذي أعدَّه اللّه للكافرين، فيه إهانةٌ لهم، وأيُّ إهانة؟ ولذلكَ أُطلقتْ كلمةُ المَهين على الرَّجُلِ الحَقير، وهو أَلْزَمُ بالكافرين من غيرِهم، وهو ما يناسبُ سياقَ الآيةِ الكريمة.

(1) الراغب، المفردات: (عتد)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (مَهَنَ).
(3) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (مَهَنَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 330، والفيروزآبادي، البصائر: 3/17.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»